**لمحة تاريخية عن الدرس الصوتي عند العرب وغيرهم**

لقد أدرك الدارسون القدامى على اختلاف توجهاتهم العلمية حقيقة أنّ للصوت أهمية كبرى في جسم أية لغة فاهتموا به من حيث هو ظاهرة فيزيولوجية و اعتبروه الأساس المعول عليه في وضع المعايير التأسيسية للنحو العربي. ذلك أن الصوت قد فرض نفسه في دراسات قد لا تبدو علاقتها واضحة بالصوت ؛ فالنظام القواعدي في مرحلته الأولى نشأ في رحاب معاينة الظاهرة الصوتية. من ذلك مصطلحات المميزات الوظيفية (حركات الإعراب) فهي – في النحو – علامات على الفاعلية و المفعولية و هي في اللسان أساسها الجانب الفيزيولوجي من الظاهرة الصوتية.

علاوة على صلة الأصوات الوثيقة بالدرس الصرفي عند العرب بكل جزئياته الصوتية فكان ما توصل إليه العرب في مضمار البحث الصرفي عبارة عن استجابة فعلية لمفاهيم الأصوات قبل أن تتبلور دلالاتها المعاصرة ؛ و لعل لهذا السبب – يقول سامي عوض - « لم يقم سيبويه مصطلحات تميز في وضوح قطاعات الأصوات و بناء الكلمة و بناء الجملة، فكل هذا يدخل عنده في مجال واحد هو مجال النحو »

كما ربط الخليل بن أحمد اللغة بالصوت باعتبار أن الصوت هو امتداد للبنية التركيبية و أصل الأفكار المنطوقة في اللغة ؛ و هذا ما توصل إليه بعد قرون دسوسير حينما رأى أن اللغة فكرة منظمة مقرونة بالصوت من خلال تأمل عنصرين يشتركان في تأدية اللغة لوظيفتها و هما : الأفكار و الأصوات

إن هذا المنحنى من التخطيط الصوتي هو الذي يرمي إليه الخليل في مقدمة العين ليخلص إلى صلة التفاعل الحقيقي بين الأفكار و الأصوات. من هنا يرى مهدي المخزومي أن الخليل لم يتناول اللغة بالدرس من قمة الهرم كما فعل من سبقه و كما فعل من عاصره، و لكنه تناولها من القاعدة، فبدأ الدرس اللغوي من الصوت الذي تتألف منه مفردات اللغة و استطاع بذلك أن يفسر ظواهر لغوية لم تكن لتفهم بدون فهم سابق لطبيعة الحروف و تفاعلها

لذا فالصوت اللغوي في حياة التراث العربي ليس جديدا، فالذي يثبته الواقع التاريخي و البحث اللغوي أن الخليل هو أول من وضع الصوت اللغوي موضع التطبيق الفني في دراسته التي انتظمها كتابه " العين " وبخاصة مقدمته التي تنم عن حس لغوي دقيق، فلقد أحس الخليل بكثير من جوانب المشكلة الصوتية لذلك يعد الأول الذي جعل الصوت اللغوي أساس اللغة المعجمي فكان بذلك الرائد و المؤسس. و لا يمكن في منظورنا أن نفصل سيبويه عن مدرسة الخليل في اللغة و الأصوات فهو الممثل الحقيقي لها فيما نقل لنا من علم الخليل في الكتاب و قد ورث عنه فيما ورث وصفا دقيقا لأصوات العربية في مخارجها و صفاتها و تبقى أفكار الخليل و نظرياته - سواء ما جاء في العين أو ما نقل عن سيبويه – نبراسا و هديا لعلماء اللغة و النحو و الصرف و العلوم اللسانية بصفة عامة. و ما قدمه ابن جني (عثمان أبو الفتح) (300-392) أيضا يعد تأصيلا صوتيا لكثير من الملامح و الخصائص المكتشفة في ضوء تقدم العلم الفيزيولوجي الحديث.

و هكذا فليس جديدا القول بسبق العرب إلى تأصيل الصوت اللغوي و اضطلاعهم بأعباء المصطلح الصوتي منذ القدم يقول إبراهيم أنيس: « و لقد كان للقدماء من علماء العربية بحوث في الأصوات اللغوية شهد المحدثون أنها جليلة القدر بالنسبة إلى عصورهم.و قد أرادوا بها خدمة اللغة العربية و النطق العربي، و لاسيما في الترتيل القرآني. و لقرب هؤلاء العلماء من عصور النهضة العربية، و اتصالهم بفصحاء العرب كانوا مرهفي الحس، دقيقي الملاحظة، فوصفوا لنا الصوت العربي وصفا أثار دهشة المستشرقين و إعجابهم »؛ حيث قدم العرب مفصلا صوتيا يمثل غاية في الدقة و التقعيد و هو يهدف إلى وضع ضوابط للأداء الفعلي انطلاقا من القراءة الصحيحة للقرآن الكريم و هي القراءة التي تخضع للكفاءة اللغوية للسان العربي.

و ما توصل إليه العرب من نتائج صوتية قد أيدها الدرس اللساني الحديث نتيجة لعمق المفردات الصوتية التي خاض غمارها الرواد القدماء و ألزمت جملة من اللغويين الغربيين الاعتراف بها من ذلك :

* قول المستشرق الألماني برجستراسر : « و لم يسبق الغربيين في هذا العلم إلا قومان من أقوام الشرق و هما أهل الهند و العرب ».
* قول اللغوي الانجليزي فيرث : « إن علم الأصوات نما و شبَّ في خدمة لغتين مقدستين هما السنسكريتية و العربية »
* اعتراف جورج مونان صراحة بجودة الدرس الصوتي عند العرب قائلا : « منذ القرن الثامن الميلادي كان علماء اللغة في البصرة يسعون إلى وصف لغتهم وصفا صوتيا، و سواء أوجدوا تلقائيا علما للأصوات جديرا بأن يذكرنا بالعلامة بانيني، أم أنهم اقتبسوا هذا العلم عنه، فتلك مشكلة على حدة، و لكن لابد لنا – بادئ ذي بدء – أن نعترف بوجود هذا العلم في الأصوات و أنه علم فذ ممتاز »

و لقد استمرت اللغة العربية في استقطابها لأكثر العقول تميزا في اللسانيات، فكان من أبرز المهتمين بها مايكل بريم (Michael Brame) الذي يقول :« يبدو أن اللسانيات السامية في وضعها الراهن مفلسة. فليس هناك إلى الآن أي وصف صوتي معاصر لأية لغة سامية يتجاوز تحليل النحويين العرب القدماء »

 ثم أن عالما ألمانيا محدثا هو " شاده " جعل موضوع رسالته لنيل شهادة الدكتوراه (علم الأصوات عند سيبويه) و قد رجح فيه أن العرب لم يقتبسوا علم الأصوات من أحد، و أنه من وضعهم و استنباطهم خدمة للقرآن الكريم و أدائه

هذا و من خلال تشريح آليات المصطلح الصوتي عند البصريين تبين لنا أن العطاءات المعرفية التي بلورها علماؤنا فيما يخص الدراسة الصوتية يمكن تصنيفها إلى مستويين :

* مستوى الصوت اللغوي المنفرد حيث يدرس الصوت في ماديته و تحققه أي دراسة نطقية أو هجائية للصوت و هي تندرج ضمن ما أطلقت عليه اللسانيات الحديثة علم الصوت العام (La phonétique).
* مستوى التشكيل الصوتي حيث تدرس الأصوات اللسانية من خلال وظائفها التمييزية و هذه الدراسة تندرج ضمن مباحث علم الصوت الوظيفي (La phonologie) و هي تقف على دراسة الطبيعة الاختلافية للأصوات اللسانية و بالتالي دور الأصوات في حمل المعنى و تبليغه.